أنها هي المعطيات الجديدة للوضع الراهن وعمل بها بدلاً من رفضها ومحاولة قلبها أو إلغائها. وصحيح أن م.ت.ف. كانت تمسك بالمبادرة السياسية ـ الدبلوماسية في مراحل معينة، لكنها فقدت المبادرة الميدانية منذ سنوات، مما فرَّغ محتوى المبادرة الدبلوماسية، في النهاية، من زخمها وتأثيرها. ولا نقصد أن الطرف الفلسطيني لم يحاول أن يتعامل مع الوضع الجديد، بل انه قَبل بأن يخوض الصراع في المرحلة الجديدة على الأسس وحسب الشروط التي حددها العدو، دون منازعة حقيقية للمسلَّمات التي سعى العدو إلى فرضها. ويوجد مثال على ذلك في الاصرار على اقتحام اسرائيل بحراً بأسلوب لم يتغير سوى ببعض تفاصيله التنفيذية خلال ١١ سنة، رغم الفشل المتكرر، بدلاً من تغيير هدف العمل البحري أو تحويل الجهود نحو بناء العمل السري في الارض المحتلة كبديل كامل. ويضاف، أخيراً، أن حجة «الظروف» استُخدمت، ايضاً، في حالات كانت تسمح فيها الظروف بإنجاز أكثر مما أُنجز فعلاً، ومثلاً حين سمحت الظروف الأمنية ـ السياسية في بيروت بتكديس الاسلحة والذخائر في المخيمات.

تشوب معضلة فكرية مركزية الممارسة العسكرية والسياسية الفلسطينية، وتتعلق بفهم ماهية البديل التاريخي، على صعيد منهجية العمل السياسي وعقيدة الاعتماد على الجماهير المعبأة والمنظمة، الذي يفترض أن تقدمه حركة المقاومة الفلسطينية الى الجماهير الفلسطينية والعربية. إذ تنبع مختلف القضايا، مثل الاستخدام الخلاق للاداة العسكرية والاحتفاظ بالمبادرة ومنازعة الأمر الواقع، من المنهج الثوري (أو لنسمِّه الديناميكي أو حتى الخلاق، اذ يمكن للمرء أن يكون مبادراً دون أن يكون ثورياً بالمعنى السياسي ـ الايديولوجي). وتحمل ممارسة الحركة الفلسطينية عواقب هامة بالنسبة إلى أحوال ومصير الشعب الفلسطيني، سياسياً وجسدياً، نظراً إلى تعقيد الظروف والتفاعلات السياسية في الساحة الفلسطينية والعربية. فاكتسبت، بسبب ذلك، حتى أصغر التكتيكات العسكرية (التي ربما يفترض أنها ثانوية الاهمية) التي اختارتها الاطراف الفلسطينية وقعاً سياسياً ومعنوياً ملموساً. ويوجد مثال على ذلك في العمليات الخارجية، مثل إلقاء قنبلة يدوية على مطعم يوناني يرتاده بعض البريطانيين، مما يكاد لا يذكر من حيث أهميته العسكرية لكنه يؤخر المجهود الاعلامي الفلسطيني في الغرب لمدة شهور أو سنوات.

يتضح الرابط بين الممارسة العسكرية وعواقبها السياسية والاخلاقية عند مراجعة حادثتين في التجربة العسكرية الفلسطينية، هما «القصف العشوائي» واحتلال بلدة الدامور في مطلع العام ١٩٧٦. ظهر نمط القصف العشوائي، أول ما ظهر، خلال الحرب الاهلية اللبنانية في ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦، حين أخذت القوات الانعزالية تقصف المناطق الاخرى (الوطنية) دون تمييز بين مدني وعسكري. وسرعان ما تبنت غالبية التنظيمات اللبنانية الوطنية والفلسطينية هذا الاسلوب، لتقصف التجمعات السكانية المسيحية أو المارونية في الغالب. وتمثل التبرير لذلك في التأكيد على أنه يجب قصف مدنيي الخصم من أجل ردعه عن قصف المدنيين «الوطنيين». وقد ثبت خطأ هذا الاعتقاد بالملموس لأن القصف العشوائي الانعزالي لم يتوقف، بل استفاد الخصم معنوياً داخل معسكره واستقدم المزيد من المتطوعين الحاقدين، علماً، أيضاً، بأن القصف العشوائي كان يوقع إصابات أكثر بكثير في المناطق «الوطنية» بسبب اكتظاظها.

لكن لم يقتصر عيب منطق القصف العشوائي على كون النتائج لغير صالح الطرف